﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـال من إقامة الحجّة إلى الجواب الأبتر

لمّا أقام إبراهيم ﷺ الحجَّة القاهرة على قومه واعترفوا بأنّ أصنامهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، ناسبَ ذِكْرُ ما أجاب به قومه في دفعِ هذه الحجّة؛ فعَدَلوا عن الجواب وأخبروا أنّهم وجدوا آباءهم على شيءٍ فقلّدوهم، وهذا من أقوى الدَّلائل على فساد التَّقليد ووجوب التَّمسُّك بالاستدلال[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدۡنَآ﴾: (وجد) أصلٌ يدُلّ على الشَّيءِ يُلْفيه، وجَدَ يَجِدُ وُجودًا، يقالُ: وجَدَ مَطلوبَه يَجِدُه وجودًا، ووَجَدْتُ الضّالَّةَ وِجدانًا[2]، والوجودُ يكونُ بإحدَى الحواسِّ الخَمس، ويُعبَّرُ عنِ التَّمكُّنِ من الشَّيء بالوجود، نحو قولِه تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التَّوبة: 5]، أي: حيث رأيتُموهم، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾[3].

2) ﴿يَفۡعَلُونَ﴾: (فعل) أصلٌ يدُلُّ على إحداثِ شيءٍ من عملٍ وغيره، ويوصف بالحُسن والقُبح، فعَلْتُ كذا أَفْعلُه فعْلًا، والفِعال جمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ، بفتح الفاء: الكَرَم وما يُفعَلُ من أمرٍ حَسَن، قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197][4]، ومعنى ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ أي: يعبدون الأصنام.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُـفْـلِـسُ من الحججِ يُسارع إلى تمجيد الآباء

أجابَ قومُ إبراهيمَ ﷺ عن أسئلته مُضْربينَ عن أن يكونَ لهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 510.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّازي، مختار الصّحاح: (وجد).
(3) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).

سمعٌ أو نفعٌ أو ضُرٌّ اعْترافًا بما لا سبيلَ لهم إلى إنكاره، واضطرّوا إلى إظْهارِ أنْ لا سَنَدَ لهم سِوَى التَّقليدِ الأعمَى، فكأنَّهم قالوا: لا يَسْمعونَ ولا يَنْفعونَنا ولا يضرّون، وإنَّما وجَدْنا آباءنا يفعلونَ مثلَ فِعْلِنا ويعبدونَهم مثلَ عبادتِنا فاقْتدَيْنا بهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصل:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هذا منهم حَيْدةٌ عن جَوابِ الاستِفهامِ[2]، وجيء بهذه العبارة مستأنفةً لكونها واردةً على صيغة المحاورة المشهورة بين الأطراف.

غرض الإضراب عن الجواب:

العدول إلى ذِكْرِ التَّقليد انقطاعًا منهم عن الجواب وإقرارًا بالعجز

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ إضرابُ انتِقالٍ عن جَوابِه ﷺ لِما سألَ، وأَخْذٌ في شَيءٍ آخَرَ لم يَسألْهم عنه؛ انقِطاعًا وإقرارًا بالعجزِ[3]، والجواب بـ﴿بَلْ﴾ للانتقال من مقام إثباتِ صفاتِ السَّمع والنَّفع والضّرّ للأصنام إلى مقامٍ قاطعٍ للمُجادلة - في نظرهم - وهو أنَّ عبادتهم للأصنام كانت موروثةً عن آبائهم، فانتقلوا إلى دليل التَّقليد بالسَّلَف، تفاديًا من كُلفة النَّظر والاستدلال بالمصير[4].

لأنَّهم لو قالوا: يسمعوننا وينفعوننا ويضرّوننا، فضحوا أنفسهم بالكذب الذي لا يُمترى فيه، ولو قالوا: يسمعوننا ولا يضرّوننا، أسجلوا على أنفسهم بالخطإ المحضِ، فعدلوا إلى التَّقليد في عبادتها من غير برهانٍ ولا حُجّة[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 92.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 163.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 164، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 140.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 23.

دلالة الإيجاز:

إذا دلَّ السياق على المعاني اختُزِلَت الألفاظ

جاءت أداة ﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ للإضراب عن محذوفٍ بدلالة سَوق الكلام، أي: قال المشركون حين قال لهم إبراهيم ﷺ ذلك: لا يكون لهم سمعٌ أو ضرٌّ بنفسه أو نفعٌ، أو لا نستطيع إثبات أنّهم يسمعون دعاءنا، ولا نستطيع إثبات أنّها تنفع أو تضرّ، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ففعلنا كذلك[1].

دلالة التَّعبير بالماضي:

الإيماءُ إلى عراقةِ الآباءِ في الشِّرك

جاء التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَجَدْنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ والمعنى أنّنا وجدنا آباءنا من قَبْلِنا يعبدونها، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداءً بهم، واتّباعًا لمنهجهم[2]؛ وهذا دليلٌ على عراقة آبائهم في الشِّرك ورسوخهم فيه، ولهذا وصفهم إبراهيم ﷺ بعد ذلك بالقِدَمِ في الشِّرك في قوله: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾.

غرضُ التَّشبيه وبلاغتُه:

سببُ عبادةِ الأصنامِ تقليدُ الآباءِ والاقتداءُ بالأسلافِ

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تَشبيهُ فِعلِ الآباءِ بفِعلِهم، وهو نَعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: يَفْعَلون فِعلًا كذلك الفِعلِ[3]، فلمّا علموا أنَّها لا تَضُرُّ ولا تنفع ولا تعقل ولا تسمع، فاضطروا إلى إظهار السَّببِ في عبادتهم إيّاها، والباعثِ لهم على ذلك، وهو تقليدُ آبائهم وأجدادهم؛ لأنَّهم كانوا يعبدونها قبلهم[4]، ولذلك شَبَّهوا فِعلَ آبائهم بفعلهم الذي هو عبادة الأصنام[5]، فالكاف قد عقدت صلةً بين أمرين هُما: فعل الأبناء،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 248.
(2) المغراوي، التَّدبر والبيان: 24/ 346.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 19/ 248.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 151.

وفعل الآباء، وبهذه الصِّلة انعقد التَّشبيه بين فعل الآباء وفعل الأبناء، وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وغرض التَّشبيه بيانُ سبب عبادتهم لأصنامهم في تقليد الآباءِ والاقتداء بأسلافهم فحسب، وهذه حُجَّةٌ واهيةٌ ابتدعوها للخروج من مأزق الجواب.

فائدةُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم الجارُّ والمَجرورُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على يَفْعَلونَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ للاهتمامِ بمَدلولِ اسم الإشارة[1] الموجَّهة إلى فعلهم لِما فيه من الظُّهور. وبيانَ أنّ فعلَهم الظّاهر ليس هو إلّا فعل الآباء.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع:

التَّعبيرُ بصيغة المُضارع ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لاستحضار الصّورة الماضية التي كان عليها آباؤهم في عبادة الأصنام التي استمرّوا عليها ودَأَبوا على العكوف عليها.

دَأَب الآبـاءُ وعـكَـفـوا على عبادة الأصنام

بلاغة استعمال مفردة ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفْرَدَة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ولم يقل: (يَعْبُدون)؛ لأنَّ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ تعمُّ العاقل وغير العاقل، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النّور: 41]، أمَّا (يعبدون) فهي تخصُّ العاقل فقط، فإيثارُ الفعل على العبادة لبيان أنَّهم يفعلون فعل آبائهم بمتابعةٍ شديدةٍ دون عقلٍ أو تأمّلٍ في صحَّة أفعالهم، وهو قريبٌ من قول مَنْ شاكلهم من قريشٍ حين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّخرف: 22].

يفعلون فِعْلَ الأنعام بل هم أضلّ سبيلًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 140.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

الفعل كون الشَّيء مُؤَثِّرًا في غيره[1]، ولفظ الفعل أعمُّ من معنى سائر أخواته، نحو: العمل، والصُّنع، والإبداع، والإحداث، والخلق والكسب[2]؛ أمّا العمل فهو كلُّ فعلٍ صادرٍ من الحيوان بقصدٍ؛ فالعمل لا يُقال إلّا لِما كان من الحيوان دون ما كان من الجماد، ولِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[3]، فهو أخصُّ من الفعل[4].

العـمـل فِـعْـلٌ صادر عن قصدٍ، والفعلُ أعمُّ منه

والعملُ لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرن بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعض الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلم تنبيهًا أنَّه من مقتضاه، فالفعل لفظٌ عامٌّ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الانسان والحيوان والجماد[5]، والعملُ أخصُّ منه.

(1) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 168.
(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 168.
(3) المناوي، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 247.
(4) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (عمل).
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 322.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»